التأثر بالشركيات والوثنيات والخرافات
"دراسة تفسيرية"

إعداد

الباحث / شعبان طلعت عثمان

الملخص

من نظر بعين الدقة والبصيرة في التيار الحداثي بمذاهبه ومدارسه وتوجهاته سيجد أنه من أقوى أسباب انحرافهم: التأثر بالشركيات الوثنيات والخرافات.

بل ونستطيع الجزم بأن الأمر لا يتوقف على مجرد التأثر فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى حدٍ أصبحت معه هذه الشركيات الوثنيات والأساطير والديانات المنحرفة جزءًا من النظام المعرفي، والأساس الثقافي والفكري للحداثة، وما الألفاظ الوثنية والنصرانية واليهودية إلا قطرةٌ من محيطٍ عميق استقى منه الحداثيون وتضلعوا.

وأبدأ أولًا بـ: التأثر بالشركيات والوثنيات والخرافات:

مرّ معنا في بداية هذا البحث ذكر الجذور التي قامت عليها الحداثة في الغرب، وهي جذور تمتد إلى اليونان بأوثق الصلات، شأنها في ذلك شأن جميع الفلسفات والمناهج والمذاهب الغربية التي جعلت من الإغريق وأوثانهم وفلسفاتهم أساسًا ومنطلقًا.

وإذا كانت الحداثة والمذاهب المادية الإلحادية والعلمانية في الغرب قد نشأت في ظروف تخصها وكانت أوضاع وظروف معينة – كما أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث – إذا كانت حداثة الغرب بهذه الكيفية، فإن الحداثة والعلمانية العربية ليست إلا نسخة مستعارة منقولة بالنص إلى أوضاع وظروف مغايرة تمامًا لظروف الحداثة والعلمانية الغربية.

وبالرجوع إلى مراحل الصراع الفكري المادي الذي ساد الحياة الغربية إثر التسلط الكنسي وإلغاء العقل الإنساني وفرض الخرافة والجهالات، وتحريف الدين السائد بينهم؛ تبدو العلمانية والحداثة والمادية حركة إصلاح اجتماعي وعلمي تتمرد على كل هذه الضغوط والظروف العصيبة، بل إن الغرب بإقصائه الكنيسة عن التدخل في شؤون الحياة والدولة يبدو منسجمًا

مع التصور الاعتقادي الموروث والمستند إلى المقولة المنسوبة إلى المسيح: " دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر"، أما الحداثة والعلمانية في المجتمع المسلم، فليست سوى نبتة غريبة مستنبتة في غير أرضها وكل مضامينها الاعتقادية تؤكد أنها آيلة إلى زوال، ولكن ربّما بعد صراع طويلٍ دامٍ مثل: صراع الإسلام في غربته الأولى مع الجاهلية الأولى.

الكلمات المفتاحية: الخرافات/ الوثنيات/ التفسير/ الحداثة/ العلمانية

Summary:

Whoever looks closely at the modernist current with its doctrines, schools, and orientations will find that it is the strongest reason for their deviation: being affected by pagan polytheism and superstition.

The matter ceases to be affected only, but division is on this matter, but they have become with them this remnant, the pagans, myths and deviant religions of the system, and the paganism and the fundamentalism and the Judaism coordinated, and what pagan, Christian and Jewish expressions, except that it is from a deep ocean of which the blacksmiths and ribs.

I will start first with: Influenced by polytheism, paganism and superstition:

The majority of scholars and their philosophies are very different from the philosophies.

If this were the case, then this environment and the environment of solutes, the phenomenon of environmentalism, and the emergence of Western modernity and secularism.

إن الحداثة والعلمانية – وهذه علاقة عموم وخصوص – تعني بدعوتها إلى حرب الدين وفصله عن الحياة وإبعاده عن المناهج التي تسير

نشاطات الإنسان، أنها تعني بكل ذلك الخروج الواضح الجلي على مبادئ عاشت عليها الأمة وتوحدت وازدهرت بها وخرجت بسببها من الظلمات إلى النور.

وإذا كانت الحداثة تعد في الغرب إنجازًا ثقافيًا حسب الظروف والمعطيات التي عاشها الغرب، فإنها تعني في العالم الإسلامي كفرًا وردة وتخلفًا ورجعية، وإذا كانت الحداثة في الغرب تستمد حياتها وروحها من وثنيات وأساطير الجاهلية اليونانية وغيرها؛ لأن ذلك أساسهم المعرفي وجذرهم الفكري، فما الذي يدعو الحداثي العربي أن يتغنى بأساطير اليونان ويشيد بآلهتهم الباطلة، ويتمذهب بمذاهبهم الشكية واللاأدرية والوثنية؟

الجواب الحقيقي على ذلك أن الحداثة العربية ليست سوى عملية نسخ فكري إلى حد التقمص، ولذلك لا تجد حداثيًا عربيًا يخرج عن هذا الإطار، ولا يتحول عن هذه الصورة الهزلية الشائنة؛ لأن الحداثيين العرب حين استنسخوا الحداثة من الغرب استنسخوا معها كل ما أحاط بها وكل ما كان في أغوارها من انحرافات وضلالات وجاهليات ووثنيات.

وانخرطوا في دائرة الاستبدال الحضاري، والأخذ الإجمالي والتفصيلي لفكر الغرب ونظرياته وفلسفاته وعقائده، وأضحوا صورة باهتة عن أولئك في أحط درجات انحطاطهم الخلقي والعقدي، وما من مجنون كنتشه أو مأبون كأندريه جيد [1] إلا ونرى له من ضحايا الحداثة والعلمانية – من العرب – من يتبعه ويقلده ويشيد به.

هذه هي محنة الاستعارة والتقمص التي أنغمس فيها جميع الحداثيين العرب من غير استثناء.

وحتى لا يكون الكلام مجرد دعوى ملقاة على عواهنه فإنه لا بد من إثباتها بالبرهان، وقد مر بنا في طيات هذا البحث ما يؤكد ذلك بالدليل القاطع، وفي هذا الفصل زيادة تأكيد، وليس هناك ما يدعو الحداثيين العرب

إلى استخدام الأسطورة والوثنيات الجاهلية اليونانية أو غيرها، إلا مجرد تقليدهم للغرب، هذا التقليد الذي أنشأ في خباياهم عقائد الإلحاد والشك والرفض والتدمير، ومواجهة الدين الإسلامي، والسعي في مناقضته، بشتى السبل والوسائل، لا سيما أنه جاء لتدمير الوثنيات ومحو الجاهليات، فلا جرم أن يكون المتشبعون بعقائد الجاهلية القديمة والمعاصرة أعداء للدين الذي هدم بنيان الوثنية وحطم أصنامها وأعلامها وأباد خضراءها.

من هذا ومما سبق يتبين لنا أسباب انجراف الحداثيين العرب في خوض الوثنيات الآسن، وقد خصص أدونيس في صدمة الحداثة من الثابت والمتحول عدة فصول لدراسة اليونان وعلاقة فلسفتهم وفكرهم بالمسلمين الذين يسميهم العرب تسمية مقصودة لها ما وراءها من دلالات باطلة يرغب الوصول إليها !!

وقد بدأ كلامه بقوله: (كانت اليونان هي المشكلة الحضارية الأولى التي واجهها المجتمع العربي وكلنا نعرف المواقف التي تولدت عن هذه المواجهة)[2].

ثم صنف هذه المواقف إلى ثلاثة أقسام: الأول: أخذ آلة التفكير، والثاني: التوفيق بين الدين والعقل اليوناني، الثالث: رفض الفلسفة اليونانية [3].

ثم أشاد بالموقف الأول: موقف ابن رشد [4]، الذي يقرر – حسب قول **أدونيس** – بأن لدى اليونان معرفة حقيقة يجب أخذها، ثم يذكر المبررات التي تسوغ أخذ ما لدى اليونان في سياق مليء بالمغالطة والتخليط والهشاشة.

ثم انتقل إلى المواقف المعاصر وإلى التلفيقية التي سار عليها من يسميهم مفكرو عصر النهضة، قال: (... لقد استعدنا التوفيقية والتلفيقية الغزالية: " جسديًا" نأخذ الحضارة الغربية ووسائلها، أما "روحيًا" فنبقى في ثقافة الوحي) [5].

وهذه التلفيقية – حسب قوله – على ما فيها من أسباب للضلال والانحراف والتخلف والشتات إلا أنه يراها توفيقًا وتلفيقًا لا قيمة فيه ولا غناء به، أي أنه يدعو إلى أخذ اليونانية كاملة، ويرى أن سيطرة الغرب الراهنة ونفوذه في المسلمين – وخاصة النفوذ الأمريكي – في كل المجالات قد خلخل هذه النظرة التوفيقية القديمة القائمة على الاستفادة من آلة اليونان الفكرية وترك مضمونها الاعتقادي ولا شك أن أدونيس جذل ومسرور بهذه النتيجة التي تخدم طموحاته الحداثية، توصله إلى الغاية التي سماها " صدمة الحداثة".

يقول بعد النص السابق ذكره: (غير أن الأمبريالية [6] الثقافية تخلخل، اليوم جذريـًا، هذه التلفيقية، بحيث تقذف بالمجتمع العربي في مفترق حاسم، وبحيث أنه لا يبدو أكثر من ملحق اقتصادي – ثقافي بالغرب، وعلى الأخص بمركزه الإمبريالي المهيمن: الولايات المتحدة، إنه الآن، بتعبير آخر، في مرحلة انشقاق على مستوى الأصل، ولئن قدرنا في الماضي أنه نلغي أو نعلق بمعنى ما، الغرب، ممثلًا باليونان، فإن الغرب اليوم يقيم في أعماق أعماقنا، فجميع ما نتداوله اليوم، فكريـًا وحياتيـًا، يجيئنا من هذا الغرب، أما فيما يتصل بالناحية الحياتية، فليس عندنا ما نحس به حياتنا إلا ما نأخذه من الغرب وكما أننا نعيش بوسائل ابتكرها الغرب، فإننا نفكر بلغة الغرب: نظريات ومفهومات ومناهج تفكير ومذاهب أدبية ... إلخ ابتكرها، هي أيضـًا، الغرب، الرأسمالية، الاشتراكية، الديمقراطية، الجمهورية، الليبرالية، الحرية، الماركسية، الشيوعية، القومية ... إلخ، المنطق الديالكتيك العقلانية ... إلخ/ الواقعية الرومنطيقية، الرمزية السوريالية ...إلخ، هذا من دون أن ندخل في ميدان العلوم، وبخاصة العلوم البحتة.

كيف نواجه، في ضوء هذا كله، مشكلية الحداثة في المجتمع العربي؟، ولكن قبل ذلك، ما الشيء الباقي لنا كخصوصية مميزة؟ الدين والشعر، وحتى

الدين والشعر لا بد من أن نتساءل حولهما: أي دين؟ وأي شعر؟ ...، هذه المشكلية هي ما أسميتها بصدمة الحداثة) [7].

إن **أدونيس** في هذا النص وغيره يحاول أن يؤصل قضية الإلحاق بالغرب ويجعل لها أصلًا في التاريخ الثقافي للمسلمين ويستند إلى وهم تاريخي ووهم معاصر، أمّا الوهم التاريخي فيتمثل في جعل ابن رشد أساسًا للاستناد إلى اليونان، وتبريرًا للانجراف الحداثي نحو الفلسفات اليونانية في محاكاتهم للحداثيين الغربيين، واستناده على ابن رشد يذكر بالحداثي المغربي محمد عابد الجابري، الذي حاول المحاولة ذاتها واتخذ من ابن رشد سندًا لاستعارة الأفكار العلمانية والحداثية من الغرب.

ولست هنا في موضع تفنيد أقوال ابن رشد، ولكني أقول قولًا كليًا يُمكن الرد به على هؤلاء المغالطين: لقد كان ابن رشد رغم دفاعه عن الفلسفة الأرسطية اليونانية صاحب ملة ودين، وكان أخذه من الفلسفة من أجل تقوية البراهين العقلية الدينية، والرد على شبه المغالطين، فالفلسفة اليونانية عنده مجرد آلة يستخدمها ابن رشد لنصرة الدين، أو لاكتساب المعارف وضبطها بضوابط معرفية فلسفية.

أمّا **أدونيس** وأضرابه من الحداثيين فإنهم يأخذون الحداثة بقلبها وقالبها الغربي المحتوى على الفكر والإلحاد والمادية والضلال والانحراف، أي أنهم يأخذون من الغرب ومن اليونان – جذور الغرب الفكرية – يأخذون ما يودون به هدم دين الإسلام والقضاء على الملة الإسلامية، ويستخدمون ذلك في تدمير القيم والمبادئ والشريعة والعقيدة وكل ما جاء به الوحي إلى النبي ρ، وهذا ما أثبتناه في مضمون البحث.

إن المسألة الجوهرية ليست في الأخذ من اليونان أو عدم الأخذ، وهل هذا نافع أو غير نافع، أو نحدد نظريًا ما الذي أخذوا وما الذي لم يأخذوا،

وما الذي انتقد عليهم وما الذي سُلّم لهم إلى غير ذلك من المقولات التي يُمكن الحديث عنها في إطار نقاش أهل القبلة مع بعضهم.

المسألة الجوهرية هنا هي أن أدونيس وغيره من الحداثيين يسعون جاهدين لتبديل دين الأمة وتحويلها من أمة موحدة إلى أمة وثنية، ومن أمة صاحبة رسالة ودين إلى أمة بلا دين ولا رسالة ولا شريعة ولا خلق، وأمّا الوهم المعاصر فيتمثل في الخلط المتعمد بين التقنية والأفكار والأخلاق والعقائد.

وهذا الخلط الذي يعتمد عليه الحداثيون في تمرير وتسويغ كفرهم وضلالهم وانحرافهم وتبعيتهم ومحاكاتهم الفكرية والعقدية للغرب، لون من ألوان الرؤية المبعثرة، والبصيرة المطموسة، كما أنه لون من ألوان المغالطة والكذب الفكري والمخادعة الثقافية.

وممن رسخ هذا المبدأ المتناقض أدونيس حيث جعل أنه من التناقض الأخذ بالحداثة التقنية ورفض الأفكار التي أنجزتها والتي يسميها الحداثة الحقيقية فيقول: (ندرك بالتالي، الدلالة في موقف العربي المتناقض عما نسميه الحداثة، فهو يقبل منها كل ما يحسن الحياة وطرقها المعيشة بخاصة، لكنه يرفض النظرة التي أبدعتها، والحداثة الحقيقية في الإبداع لا في المنجزات بذاتها) [8].

وبهذا الأسلوب وأشباهه لبّس أدونيس على المغفلين بهذه الفلسفة التي تخلط بين التقنية والأفكار والفلسفات والقيم، فهو يعتبر أنا إذا أخذنا من الغرب حداثة التقنية ورفضنا أساسها الفكري والثقافي والعقدي فنحن نمارس الصراع بين قيم الثبات التي تمثل الماضي، والتحولات المستقبلية.

ولم يعلم أن التقنية أصلًا منفصلة عن أي أساس فلسفي؛ لكونها حيادية تجريبية، لا علاقة لها بالمعتقد وليست مبنية على فلسفة مّا، أمّا الأفكار والعقائد والقيم والأخلاق فإنها لم تنتج هذه التقنية بل هي من أسباب

استخدام التقنية، في التدمير والبلاء والفساد الكوني، وما نراه اليوم من الظلم الذي تمارسه الدول المتقدمة في التقنية، والإباحية والدمار، والبشاعة السلوكية والسياسية والاقتصادية، والتفكك الاجتماعي، وألوان الانحراف الكثيرة، كلها تبين مدى تأثير هذه العقائد المنحرفة والأفكار الضالة التي يريد أدونيس وسائر الحداثيين استيرادها، تحت ستار النتاج التقني، وسوف تكون هذه الأفكار والعقائد – يومًا ما – سببًا في تدمير هذه التقنية، وتدمير البشرية والحياة الطبيعية والفطرية في الأرض والبحر والجو.

وهنا نحن نرى اليابان قد تقدمت في أمور التقنية ولم تتخل عن أفكارها وعقائدها وعاداتها، فلماذا يصر الحداثيون العرب على مسخ هذه الأمة وربطها بدولاب الغرب؟، ألا يكفي أننا نعيش تخلفًا وتبعية تقنية محزنة؟ حتى يأتي هذا الباطني العميل ليطلب أن نتبع الغرب في الفكر والعقل حيث يقول: (إننا نمارس الحداثة الغربية على مستوى تحسين الحياة اليومية ووسائله لكننا نرفضها على مستوى تحسين الفكر والعقل، ووسائل هذا التحسين ...)[9].

وهذا القول من **أدونيس** في الخلط بين التقنية والعقائد والأفكار، والدعوة إلى استيراد ما عند الغرب من فلسفات وثقافات وسلوكيات، ليس حصرًا على أدونيس، بل قاله كثيرون، واحتج به جم غفير من الحداثيين [10].

وتحت هذه الذريعة الزائفة تسللت الوثنيات اليونانية الإغريقية والسومرية والآشورية والكنعانية والبابلية وغيرها من عقائد الجاهلية الأولى، وفيما يلي بعض النماذج الدالة على تأثرهم بهذه الوثنيات – وهذا على سبيل المثال لا الحصر؛ **فلا يكاد أحد من الحداثيين إلا ويستشهد في كتاباته بهذه الأساطير:**

(1) يقول بدر شاكر السَّياب: (إن اللجوء إلى الخرافة والأسطورة وإلى الرموز من مظاهر الشعر الحديث المهمة ...نحن نعيش في عالم لا شعر فيه،

أعني أن القيم التي تسوده قيم لا شعورية، والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح، إذًا فالتعبير المباشر عن اللاشعر لن يكون شعرًا فماذا يفعل الشاعر إذن؟ يلجأ إلى الخرافات والأساطير التي لا تزال تحتفظ بحراراتها؛ لأنها ليست جزءًا من هذا العالم)[11].

هذه العبارات المليئة بالتضليل والمخادعة، والنفاق الفكري، ليست سوى تبرير ميت لاستخدام الأسطورة والوثنيات المختلفة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحد الكتَّاب قام بدراسة إحصائية لديوان أنشودة المطر للسياب، الذي فاز بجائزة مجلة شعر عام 1379 هـ/1960م، فوجد أنه قد استعمل رمز تموز سبع عشرة مرة، ورمز المسيح عشرين مرة، ورمز عشتار سبع عشرة مرة، والصليب إحدى وثلاثين مرة، وأدونيس ثلاث مرات، وآتيس مرتين [12].

وليست القضية مجرد ذكر وإحصاء أسماء الرموز وأسماء الأوثان، بل القضية أنه يضمّن هذه الرموز من المعاني والدلالات الشيء الهائل الكبير، وفق ما سبق نقله من مراداتهم في استخدام هذه الرموز.

يقول السياب عن عشتار:

(عشتار، أم الخصب، والحب والإحسان، تلك الربة الوالهة) [13].

وينادي تموز بوصف الربوبية قائلًا:

(يا رب، تمثالك فلتسق كل العراق فلتسق فلاحيك، عمالك) [14].

قلم يبق تموز مجرد رمز وثني قديم بل هو عند السياب رب يدعوه في تأله وتضرع بأن يسقي العراق وفلاحيه وعماله، ثم يناديه مرة أخرى بوصف الربوبية أن يسمع دعاء الرفاق وأن يرعى الفلاحين والعمال والأطفال:

(يا رب تمثالك فاسمع صلاة الرفاق ولترع فلاحيك، عمالك تمثالك البعل تمثالك الطفل تمثالك العذراء) [15].

وفي موضع آخر يصف تمــوز بالألوهية قائلًا:

(ليعو سر بروس في الدروب وينبش التراب عن إلهنا الدفين تموزنا الطعين ... إلهنا الفتيّ، لو يبرعم الحقول لو ينثر البيادر النضار في السهول لو ينتضي الحسام، لو يفجر الرعود والبروق والمطر ويطلق السيول من يديه، آه لو يؤوب!)[16].

وفي المقطع نفسه، يصف عشتار بأنها ربة تتصرف وتفعل ما تريد:

(عشتار ربة الشمال والجنوب، تسير في السهول والوهاد، تسير في الدروب، تلتقط منها لحم تموز إذا انتثر، تلمه في سلة كأنه الثمر) [17].

وبنظرة سريعة في ديوان السياب يُمكن أن يتوصل القارئ إلى أن السياب كان يكتب بأحرف وكلمات عربية أفكارًا وعقائد يونانية وفينيقية وأساطير ووثنيات من الإغريق حتى الصين [18]، وقد حشر الأسماء الوثنية في سياق قصائده حشرًا يدل على مقدار ما بلغ به محاولة إثبات العالمية والتواصل مع الغرب، وتأكيد العصرية، لنيل مراتب المديح والشرف من الغربيين وعملائهم في المنطقة.

وقد تحدث **إحسان عباس** عن استعمال السياب للرموز الوثنية من تموز وغيره، وتبريرات السياب لذلك، وخاصة فيما يتعلق بالهوية التي يحتويها إطلاق هذه الرموز والتحدث بها، في مقابل الرموز الإسلامية، أو حتى العربية الجاهلية، ولذلك حاول أن يسمى الأوثان البابلية والفينيقية تسمية عربية، ليسترضي القوميين، ويبرأ من تهمة اقتلاع العرب وربطهم بغيرهم، فقال – في معرض دفاعه – بأن عشتار هي العزى، واللاتو هي اللات وتموز هو ود، إلى آخر ما هناك من اعتذارية باهتة.

ثم ذكر المؤلف الحوافز التي جعلته يتعلق بهذه الأسماء والرموز، ومنها ميله إلى المراضاة والتلون الحربائي في الفكر والعقيدة حسب الجو الذي يعيش فيه، فهو لما انفصل عن الشيوعيين والتحق بالقومية فكرًا، ثم التصق بمجموعة شعر ذات الفكر الفينيقي النصراني، تلون معهم باللون نفسه

وانغمس في الرموز الوثنية، إلى حد أنه يأتي بأسطر مفتعلة ليس فيها إلا مقارنات ذهنية ومبالغات ممجوجة وتعبيرات نابية [19].

وكتب أحد الحداثيين مقدمة طويلة لديوان السياب ذكر فيها استخدام الرموز الوثنية، وأسباب ذلك، مع شرح مسهب وتبريرات مطولة لتسويغ استخدام الأساطير والوثنيات في صيغة جاهلية يتظاهر صاحبها بالعلم والمعرفة، ولكن الأوثان وسدنتها وأتباعها في تباب وضلال وسخف في العقول وتردٍ في المفاهيم [20].

(2) أمّا الشيوعي العراقي وأحد ناقلي ومروجي الحداثة في بلاد العرب " عبد الوهاب البياتي" فإنه مثل السياب في إغراقه ومبالغته وإكثاره من ذكر الآلهة الوثنية مع الإيمان بها وإجلالها ونسبة الإحياء والبعث والنهضة والتقدم إليها، مع نسبة كثير من الأعمال اللاإرادية إليها، فهي عنده تقول وتسير وتبكي وتندم وتضحك، وغير ذلك من الأوصاف التي التقتطها مع ما التقط من انحرافات وضلالات الغرب.

وسوف أوردها هنا نماذج من أقوال الوثنية، يقول تحت عنوان العودة من بابل:

(بابل تحت قدم الزمان، تنتظر البعث، فيا عشتار، قومي، املئ الجرار ...)[21].

وفي مقطع بعنوان " قصائد حب إلى عشتار " خطاب وثني وتمنيات وثنية وتمجيد وتقديس لعشتار إله الخصب عند الفينيقيين، وجعل الأنثى " عشتار " ملاكًا، وأضفى عليها صفات الإنبات والإحياء، وجعلها رمزًا للتقدم والتطلع والانبعاث الجديد، وكأني بأي أديب أو ناقد غربي يقرأ هذه المقطوعة وأشباهها يقول هذه بضاعتنا ردت إلينا.

يقول البياتي:

(... بين نهديها الصغيرين، وفي أحشائها رعشة بركان يثور حيث تنشق البذور، ترضع الدفء من الأعماق تمتد جذور لتعيد الدم للنبع وماء النهر للبحر الكبير، والفراشات إلى حقل الورود، فمتى عشتار مع العصفور والنور تعود؟) [22].

ثم يصف تجوله وبحثه عن عشتار أو عن حقيقة، في عصور القتل والإرهاب والسحر، وهي العصور الأولى ومنها عصر الإسلام بل حتى عصر النبوات الأولى، ثم عصر موت الآلهة، وهو نموذج من خلفياته الوثنية اليونانية والفينيقية القائمة على أن الآلهة تأكل وتنام وتزني وتموت، وغير ذلك.

ثم يشير إلى الإسلام بصراحة في عبارة "قبلت قبور الأولياء "، ثم يتجه نحو السماء وهي رمز للربوبية والألوهية، فيذكر أنه سأل ودعا، ولكن السماء – ويريد بها الله تعالى وتقدس – أمطرته بعد ألف دعاء وصلاة جمودًا يتمثل في الثلج، ودمارًا يتمثل في الدماء، وجهلًا وتخلفًا يتمثل في النبوات والملائكة المرموز لها بقوله: (ودمى عمياء من طين، وأشباح نساء) ثم يسأل (متى تنهل كالنجمة عشتار؟) متى تأتي لتنقذه من الدين ومن السماء ومن النبوات؛ لأن عشتار عنده بمثابة ملَك الحب وفي يدها الإنقاذ والرحمة والحياة الهانئة!!، وهذا بعض ما كان يعتقده الكفار الأوائل في آلهتهم، أما البياتي فإنه يدعو عشتار لتنقذه من السماء وتخلصه من الدين وتبعده عن كل ما له علاقة به يقول البياتي مخاطبًا عشتار:

(وتمزقت وناديتك باسم الكلمة .. باحثًا عن وجهك الحلو الصغير .. في عصور القتل والإرهاب وموت الآلهة .. وتمنيتك في موتى وفي بعثي وقبلت قبور الأولياء .. وتراب العاشق الأعظم في أعياد موت الفقراء .. ضارعًا اسأل، لكن السماء .. مطرت بعد صلاتي الألف ثلجًا ودماء .. ودمى عمياء من طين وأشباح نساء .. لم يرين الفجر في قلبي، ولا الليل

على وجهي بكاء .. فمتى تنهل كالنجمة عشتار وتأتي مثلما أقبل في ذات مساء .. ملك الحب لكي يتلو على الميت سفر الجامعة ويغطي بيد الرحمة وجهي وحياتي الفاجعة)[23].

وفي دروب الأوهام والخرافة وشعاب الجهل والردة يخاطب البياتي معبودته، المقدسة عنده، بخطاب تمجيد وتقديس، ويهرف بما يخطر على عقله الصنمي، وفؤاده الجاهلي واصفًا إياها بالطفلة، تحببًا ورمزًا للحياة الفتية.

ثم يصفها بأنها ولدت من نار الشموس الخالدة، وكفاه غيًا أن تكون معبودته أنثى مولودة! لكن هواه الوثني يأبى عليه أن يتوقف عند كونها مولودة فيصفها بالخلود حتى لو ماتت فإنها تبعث من جديد وتعود للظهور، ولا يدري العاقل كيف يفكر هؤلاء؟ لكنها العقلية الجاهلية منذ القدم، عقلية بليدة راكدة، وقد كان كفار الجاهلية العرب يصنع أحدهم إلهًا له من التمر فإذا جاع أكله، وها هم أولاء يعودون من جديد بالعقلية نفسها وبالجهل الضارب نفسه.

وها نحن نرى من يبجل الوثن، ويطلق زمزماته التقديسية، لكن تحت شعارات التفلسف والتأدب، حيث لا فلسفة ولا عقل ولا أدب وإنما جاهلية عارية صلعاء، يقول البياتي عن معبودته عشتار:

(طفلة أنت وأنثى واعدة .. ولد من زبد البحر ومن نار الشموس الخالدة .. كلما ماتت بعصر بعثت .. قامت من الموت وعادت للظهور .. أنت عنقاء الحضارات .. وأنثى سارق النيران في كل العصور) [24].

إن البياتي الرائد الحداثي والقدوة، والمعلم للأجيال الحداثية اللاحقة، ينحني بخضوع وذلة أمام الرموز الوثنية، ويتقلب في عرصاتها ذات اليمين وذات الشمال، وما من وثن يبرز في كلام أساتذته الغربيين أو الشرقيين إلا جرى لاهثًا خلفه يؤدي مراسيم العبادة أمام ما يسميه كعبة الشعر في قوله:

(إذا كان البعض يحج إلى كعبته كل عام فأنا أحج إلى كعبتي في كل كلمة أكتبـــها)[25].

وتتبــع الأوثــان والأصــنام التي فتن بها البياتي أمر يطول، غير أنه يُمكن تسمية أظهـرهـا عنــده، ولا شك أن عشتار قد أخذت النصيب الأوفر من عقيدته في الأوثان ونافست غيرها [26]، ثــم يأتي تموز [27]، وقـد مـرّ معـنـا قــول بـاروت أن البيـاتــي ورث الشعـراء التمـوزييـن بعـد انهيــار حـــركـــة شعـــر.

ومن الأسماء الوثنية والرموز والأماكن المرتبطة بالوثنيين عنده: سبارتاكوس [28] ومامون [29] وبوذا وهوميروس وأفيوس ونينوى وطيبه وبابل [30] وأوليس وممفيس [31] وأوفيليا [32] والألمب وآمون [33] وإرم العماد [34]، وأرفيوس وآشور [35]، وحتى نار المجوس امتدحها باعتبارها رمز الحقيقة المستمرة [36]، ويتحدث عن زرادشت بانبهار، ويرمز به إلى الرفض والتمرد والإصرار، وكأنه يريد بذلك وصف نفسه [37]، ويمتدح رفاقه الشيوعيين بأنهم مجوس هذا العصر [38]، وله مقطع بعنوان " مرثية إلى أخناتون [39] "، وله اهتمام بآشور [40]، وفينوس وأرواد، وبانيبال، وأركاديا [41]، ولارا التي ردد ذكرها مرات[42]، ومثلها الأقمار السبعة أو الكواكب السبعة التي تقول الأساطير الوثنية بأنها تؤثر في عالمنا الأرضي [43]، ولم ينس المعبد الإغريقي دلفي [44] ولا الفرعوني خوفو [45]، وأمّا الخرافة اليونانية سارق النار برمثيوس، فقد هام به هيام الجاهلي بصنمه، إلى حد جعله يصف نفسه بسارق النار في قصيدته سيرة ذاتية لسارق النار [46].

ولو بحث أحد عن نموذج للعبادة الوثنية والارتماء الوثني لما ظفر بأكثر من هذا القول الدال دلالة واضحة على أن استخدامهم للأوثان ليس مجرد رموز لها دلالات نهضة وإحياء – على ما في هذا المعنى من انحراف

– بل هي طقوس عبادة، ومراسيم ولاء كامل، في مقابل عقيدة التوحيد بصورة مباشرة وعبارة واضحة.

(3) مصطلح الشعراء والتموزيين: وصف أطلقه جبرا إبراهيم جبرا في دراسة له في مجلة شعر عام 1405هـ / 1985م، على شعر كل من أدونيس ويوسف الخال والسياب وخليل حاوي وجبرا.

وهذه التسمية ذات دلالة على مشروع الاستعارة والتقمص الحداثي الذي مارسه هؤلاء الأتباع، فما قصة تموز؟ وما خلفياته؟ وما المقاصد المناطة بهذا الاسم الوثني؟

تموز: وثن أسطوري استخدم عند الآشوريين البابليين على اعتباره ربًا للمحاصيل والإنبات، يموت في أسطورتهم في كل شتاء، ويولد في كل ربيع، صار زوجًا لعشتار أوفينوس أو عشيقها، يسمى تموز عند السومريين "دوموزي" وهو رمز للتجدد السنوي عندهم، وقد انتشرت أسطورته في البلاد المحيطة بشرقي البحر الأبيض المتوسط، وتركزت عبادة تموز في وادي الرافدين وسورية، ثم أخذ الإغريق عنهم عبادته في حوالي القرن السابع قبل الميلاد، وسموه "أدونيس" وجعلوه ربًا للإنبات والإخصاب، ويقال: أنه غيره، وإنما حصل تماثل بين أدونيس الوثن الفينيقي، وتموز الوثن البابلي.

وإنما تظهر هذه الأوثان في أشكال متشابهة ومتعددة في الأساطير التي تروي عن تلك الأمم.

الحواشي:

1- هو كاتب وشاعر فرنسي شهير، يعتبره الحداثيون أسوة لهم، وعلامة متميزة في مسيرة الحداثة، معروف بالشذوذ الجنسي.

2- الثابت والمتحول 3 – صدمة الحداثة، صـ 256.

3- المرجع السابق، 256/3، وقد جعل الموقف الأول: لابن رشد، والثاني: للغزالي، والثالث: لابن تيمية.

4- هو: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي، الفقيه، الفيلسوف، من أهل قرطبة، ولد عام 520 هـ، وتوفى عام 595 هـ، جده شيخ المالكية أبي الوليد بن رشد، تعلم الموطأ والفقه ثم انصرف إلى علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يضرب به المثل في ذلك، وصارت له الإمامة في ذلك، دافع عن الفلسفة وأرسطو خاصة، وله في ذلك مؤلفات كثيرة، رفعت عنه أقوال ردية إلى الخليفة يعقوب فنفاه إلى مراكش وأحرق بعض كتبه، ثم رضي عنه وأذن له بالعودة إلى وطنه فعاجلته الوفاة وهو محبوس في داره بمراكش، انظر: سير أعلام النبلاء 21/ 307، والأعلام، 5/ 318.

5- الثابت والمتحول، 3/ 258.

6- الإمبريالية طموح دولة أو دول نحو الاتساع على حساب الغير، ومد نفوذها وسيطرتها، أي أن دولة قوية ومسيطرة تتحكم في دولة أخرى تحكمـًا غير مباشرة في سياستها واقتصادها وهي صورة من صور الاستعمار الغربي يفرض السيطرة من غير عنف ولا احتلال عسكري، انظر: موسوعة السياسة 1/ 300، ومعجم العلوم السياسية الميسر، صـ 30.

7- الثابت والمتحول 258/3- 259.

8- الثابت والمتحول، 238/3.

9- المرجع السابق، 268/3.

10- انظر: مصداق ذلك في قضايا وشهادات 116/2 قول لعبد الرحمن منيف، 257/2، قول ليوسف الخال، وفي مجلة الناقد العدد 18 صـ 62 قول لصفوان حيدر، وفي الإسلام والحداثة 185 قول لجابر عصفور، وفيه أيضـًا، صـ 328 قول لمحمد أركون، وفي صـ355، 358 له أيضـًا، وفي الكتاب نفسه، صـ 378 قول لهشام

شرابي، وفي كتاب أسئلة الشعر، صـ296، 298 قول ليوسف الخال، وفي شعرنا الحديث إلى أين؟ لغالي شكري، صـ 19.

11- انظر: بحثًا عن الحداثة، صـ 42.

12- انظر: الموضوعية البنيوية، د/عبد الكريم حسن.

13- ديوان السياب، صـ 383.

14- المرجع السابق، صـ 435.

15- ديوان السياب ، صـ 436.

16- المرجع السابق، صـ483.

17- المرجع نفسه، صـ 485.

18- انظر: في ديوانه ذكر عشتار أو عشتروت في الصفحات، صـ 121، 327، 383، 410، 437، 469، 473، 486، 488، 627، وذكر تموز في: صـ 271، 311، 325، 362، 410، 430، 483، 486، 627، وذكر أدونيس في: صـ 362، 465، وعوليس أو أوديسيوس بطل الاوذيسة اليونانية، صـ119، وأنيسيس بطل إلياذة فرجيل، صـ 241، ويرسفون، صـ131، وارفيوس، صـ145، وزيوس، صـ 184، وهومير، صـ 407، وأولمب، صـ 429، وغينميدا، صـ 430، وميدوز، صـ 409، ولسبوس وسافو ونرسيس وتنتلوس، صـ192- 193، وهرقل، صـ 405، والسيرين، صـ 273، وبعل وسيزيف، صـ 325، 391، وأديب وأمه جوكست، صـ 511، وافروديت، صـ 514، وفاوست وهيلين، صـ 515، وأبولو، صـ 516، وأسطورة صينية، صـ 355.

19- انظر: كتاب بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره لإحسان عباس، صـ 303- 321.

20- انظر: مقدمة ديوان البياتي التي كتبها ناجي علوش (ن ن) و(ج ج ج) إلى (هـ هـ هـ).

21- ديوان البياتي، 2/ 78.

22- المرجع السابق ، 2/ 205.

23- ديوان البياتي، 2/ 206.

24- ديوان البياتي، صـ 209.

25- تجربتي الشعرية، صـ 11.

26- انظر: أمثلة ذكره لعشتار في ديوانه 220/1، 77/2، 115، 171، 202، 205- 211، 259، 273، 281، 294، 309.

27- انظر: أمثلة ذكره لتموز في ديوانه، 78/2، 273، 274، 382.

28- انظر: ديوانه، 235/1.

29- انظر: 151/1.

30- انظر: كل هؤلاء في ديوانه، 2/ 85، 93، 281.

31- انظر: 147/2.

32- انظر: 148/2.

33- انظر: 172/2، 383.

34- انظر: 177/2، 180. وقد عدها هو وغيره من الحداثيين؛ من الأساطير، مع أنها حقيقة ثابتة وردت في القرآن العظيم.

35- انظر: 203/2.

36- انظر: 215/2، 309، 418.

37- انظر: 2/ 217.

38- انظر: 2/ 251.

39- انظر: 2/ 268.

40- انظر: 2/ 271، 281.

41- انظر: 281/2.

42- انظر: ديوان البياتي، 300/2- 301، 302، 386.

43- انظر: 2/ 281، 297، 322، 326، 388، 418.

44- انظر: 382/2، 398.

45- انظر: 2/ 454.

46- انظر: 2/ 331، 353، 362- 363.